

الإجابة النموذجية للشعر الأندلسي الفرقة الثالثة د. عبد المنعم أبو زيد

أ- رأى مونتغمري وات :

من حيث الجوهر ، كان الشعر العربي الذي أنتج في الأندلس فرعاً من دوحة الشعر المشرقي . أما في الحقبة^(١) التي نتحدث عنها ، فكان أكثر من ذلك بقليل . كانت لعبد الرحمن الأول منية شبيهة بمنية جده بالقرب من دمشق سميت مثلها الرصافة : وإليه تنسب أبيات من الشعر مطلعها :

تبدت لنا وسط الرصافة	تئات بأرض الغرب عن بلد
نخلت	النخلة
فقلت شبيهي في	وطول التنائي عن بني وعن
التغرب والنوى	أهلي

ومهما تكن هذه الأبيات قليلة الأهمية من حيث القيمة الفنية ، إلا أنها تظهر بوضوح كاف أين كان الوطن الروحي لأوائل شعراء الأندلس^(٢) . لقد كان عبد الرحمن الداخل وغيره من القادمين الجدد إلي الأندلس يحملون معهم زادا ثقافيا يعتزون به . أما القوط الذين زال سلطانهم فلم تكن لهم ثقافة ظاهرة القيمة إلي درجة تقتضي اندماجاً فورياً بثقافة الفاتحين . وفي الواقع ، كان كتاب القرن التاسع المسيحيون على حق في تدمرهم من تعلق الشبان المسيحيين باللغة العربية وأدائها إلي درجة جعلتهم يهملون النصوص اللاتينية بل يزدرونها . أما بالنسبة إلي أولئك الذين ولدوا ونشأوا على اللغة العربية ، فلم تكن هناك حاجة حتي إلي الاختيار . والحقيقة الخطيرة بالنسبة إلي إسبانيا الأموية : أنها كانت تتوجه إلي المشرق لتتهدي بنهجه الثقافي على الرغم من العداء السياسي الذي كان قائماً بينها وبينه .

لم ينشأ الأدب الأندلسي من غرسة مشرقية وحسب ، بل كان على الدوام يغتني ويتطور بفضل لقاحات جديدة تصل تباعاً من المشرق . فمن بغداد ، قدم المغني زرياب (المتوفي عام ٨٥٧) ، تلميذ إسحق الموصلي ومنافسه ، مع أولاده وجواريه ، ليؤسس المدرسة الأندلسية في الموسيقى والغناء ، وليعلم ، بصورة عرضية ، آداب المجتمع البغدادي . ومن بغداد قدم أيضاً العالم الشهير أبو علي القالي (المتوفي عام ٩٦٥) ليستقبل بحفاوة عظمي ويملي كتابه الضخم "الأمالى" وكانت هذه دروساً متفرقة تتناول بشكل رئيسي مسائل في اللغة والنحو ، وتدرس حسب التقليد العربي ، مع شواهد شعرية تنقل غالباً ، ولو بشكل ضمني فقط نماذج أدبية فضلي كان لها تأثير لا حدود له على أجيال متعاقبة من المثقفين الأندلسيين . وقد كانت آثار فحول الشعراء المشاركة تدرس وتحاكي في الأندلس بعد ظهورها بفترة وجيزة من الزمن تثير الدهشة

(١) يقصد بها فترة الخلافة في الأندلس .

(٢) مونتغمري وات : في تاريخ إسبانيا الإسلامية (مع فصل في الأدب بقلم بيير كاليا) ، ترجمة د. محمد رضا المصري شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨م ، ص ٨٢/٨٤ .

بقصرها .والحقيقة أن الذوق الجديد ، الميال إلي المحسنات البلاغية ، كان الأقوى في نتاج الشعراء الأندلسيين على الرغم من أن الشعر الجاهلي كان متدارسا^(٣) .

لم يكن مستغربا ألا تطلع الأندلس شعراء فحولا بعد الفتح مباشرة .هناك عدد غير قليل من شعراء أواخر القرن الثامن والقرن التاسع ، الذين حفظت أسماؤهم وبقيت لنا نماذج من نظمهم غير أنهم لم يكونوا أكثر من مقلدين ،والحقيقة أن كثيرين منهم كانوا أمراء من البيت الأموي ،ويدينون لجاههم ومنزلتهم الاجتماعية بالاهتمام الذي لقوه من مؤرخي الأدب ومصنفي كتب المختارات .ثم ما لبثت الأندلس أن اطلعت على العصر الأموي ، وعندما أصبحت قرطبة مركزاً تعليمياً . وشرع البلاط بتقديم رعاية قيمة لذوي المواهب وأهل العلم . ما لبثت أن اطلعت أدبيين من ذوى الشهرة الخالدة^(٤) .

اشتهر ابن عبد ربه (٨٦٠ - ٩٤٠) الذي لم تخل أشعاره الغزلية من جمال ، اشتهر ، قبل كل شيء بموسوعته الأدبية ، العقد الفريد التي نالت رواجا كبيرا خلال عدة قرون سواء في المشرق أو المغرب . وقد صنفها على غرار الكتاب الذي وضعه ابن قتيبة في المشرق بعنوان . عيون الأخبار ، كما استمد معظم مواده من المشرق ، وبالفعل ، لم يورد شواهد من الشعر الأندلسي سوى أشعاره الخاصة ولابن عبد ربه أيضا أرجوزة من ٤٥٠ بيتا ، وهي ضرب من النظم أقل صعوبة من القصيدة التقليدية ، لأن الأشطار تعتبر عادة أبياتا مستقلة كل بيتين منها لهما قافية موحدة .موضوع الأرجوزة مآثر عبد الرحمن الثالث الحربية وهي تستحق أن ينوه بها لأن الشعر القصصي بقى نادرا في العربية خلال مختلف العصور .

أما ابن هانئ (لمتوفي عام ٩٧٢) ، فقد كان من غير شك أقدر شعراء عصره ، لكن اتهامه في دينه جعله ، وهو في نحو السابعة والعشرين من عمره ، يغادر الأندلس التماسا للحظ لدي الفاطميين .لقد لقب "بمتنبي الأندلس" إلا أن هذا ينبغي أن يؤخذ على أنه إشارة إلي منزلته بين الأندلسيين وأسلوبه الفخم الطنان وحكمته أكثر مما هو إشارة إلي عبقريته .وهذا الوصف لأسطول الخليفة الفاطمي المعز يمثل أسلوبه بصورة واضحة .

وهناك خاصتان لأسلوب ابن هانئ تدوان مستهجتين للذوق الغربي . الأولى هي تفككه : إذ لا يحاول الشاعر أن ينشئ لوحة متماسكة أو يتتبع حالة نفسية متناغمة وهذه ظاهرة يمكن ملاحظتها في الشعر العربي منذ مراحل الأولى : إذ كل فكرة أو صورة تستوفي في بيت واحد من الشعر .أما الخاصة الثانية . فهي استعمال الصور المجازية بطرق تبدو فيها أحيانا خالية من الحياة بشكل مستغرب ، ولا قيمة لها من الناحية الجمالية كما هي الحال بالنسبة إلي تشبيه السفن قاذفات النار بالذبال العتيد^(٥) .

(٣) نفسه : ص٨٤ .

(٤) نفسه : ص٨٤ وما بعدها .

(٥) نفسه : ص٨٦ .

هاتان الخاصتان تكشفان كلتاهما عن نظرة تجزيئية ، واهتمام بالجزء المستقل عريق في تراث العرب الثقافي ، أو يكن في طبيعتهم ويتعارض بشدة مع الاهتمام بالوحدة الذي أبداه الأدباء الأوربيون منذ أيام اليونان القدامى^(٦) .

وفي شعر الغزل أيضا كان الأندلسيون يغالون في انتقالهم من الهوى المضي إلي الدعابة ، من تعابير الخضوع المذل لمعشوقة واحدة إلي المقاضاة الساخرة جزاء جراحات الحب، من حسية صريحة لشاعر مثل ابن خفاجة :

تسافر كلتارا حتي	فطورا إلي خصر وطورا إلي
بجسمه	نهـ
فتهبط من كشحيه كف	وتصعد من نهديه أخرى إلي
تهامة	نجد

إلي احتجاج ابن حزم بأنه يفضل أن يقابل محبوبته في الحلم مخافة أن تتلاشى في اليقظة من لمس يده

أغار عليك من إدراك	وأشفق أن يذبيك لمس
طرفي	كفـ
فأمتنع اللقاء حذار هذا	واعتمد التلاقي حين
فروحي إن أنم بك ذو	أغـ
انفـ	من الأعضاء مستتر
ووصل الروح أطف فيك	ومخفـ
وقعا	من الجسم المواصل ألف
	ضعف

إلا أن المجال لا يذهب به بعيدا وراء المحسوس مهما كان مرهفا . ففي "طوق الحمامة" يعكس ابن حزم النظرة (الأفلاطونية الحديثة الخالصة) القائلة بأن الحب هو اتحاد شقي روح خلقت كتلة واحدة ، لكن التعارف كان يتحقق عبر الجاذبية المادية ، والحب الأفلاطوني، في هذا السياق ،متصل بسايكولوجية غربية لعفاف غامض يغدو معها الاتجاه الجنسي استمرار مرضيا للرجبة نظرا لأن تحقيق الرغبة والارتواء ينبغي أن يتحدا في الحب المادي ، لقد قيل إن المرأة نالت حرية واسعة ومكانة رفيعة جدا في المجتمع الأندلسي .أما في الشعر ، فقد كانت فتنتها المادية هي المتغني بها ، والسمة الخلقية الوحيدة التي أشير إليها .على الرغم من أن العفاف كان محمودا في الرجال أحيانا هي تقلبها وقسوتها في صدودها عن عاشقها ،وقد أورد هنري بيرييس مقطعا للراضى ابن المعتمد (بن عباد) يقول فيه لمحبوبته "حسنت في خَلْقٍ و خُلُقٍ "غير أنه

(٦) نفسه : ص ٨٧.

مقطع يتضمن أيضا دلالة مدهشة ونادرة على تأثير مسيحي ، لن الشاعر
يقول عن محبوبته إنها "ملاك".